

العوامل الخفية كما تتجلى في رواية الموت يمر من هنا لعبد خال

The hidden factors as revealed in the novel Death Passes Through by Abd Khal

الباحث: حميدان أبو شيبية الشرفات

وزارة التربية والتعليم، الأردن

تاريخ النشر: 2023/12/15

تاريخ القبول: 2023 /11/9

تاريخ الاستلام: 2023/11/4

الملخص:

يحمل هذا البحث اسم: (العوامل الخفية كما تتجلى في رواية الموت يمر من هنا لعبد خال)، وقد تناول العوامل الخفية كأحد أدوات التحليل الروائي في علم الأسلوبية الحديثة، وجاء في مقدمة و ثلاثة مطالب، وخاتمة، المطلب الأول: عرف بالكاتب ومفهوم العوامل الخفية، وفي المطلب الثاني: تناول البحث تحليل موجز لرواية (الموت يمر من هنا)، والعوامل الخفية خلف شخصياتها، وفي المطلب الثالث: تناولت الدراسة العوامل الخفية التي وقفت خلف ظهور رواية بحجم (الموت يمر) من هنا كمًا ونوعًا.

وقد خرج البحث ببعض النتائج والتوصيات مثل أهمية تناول الأعمال الأدبية الحديثة من منظور ما وراء السطور، متجاوزين شخصيات الرواية وأعمالها إلى سبل مقاصد هذه الشخصيات والسبب الكامن في خروجها للحياة داخل الرواية.

الكلمات المفتاحية: العوامل الخفية، الموت يمر من هنا، عبد خال.

Abstract:

This research bears the name: (The Hidden Factors as They Are Manifested in the Novel Death Passes Through Here by Abduh Khal). It dealt with the hidden factors as one of the tools of novel analysis in the science of modern stylistics. It included an introduction, three demands, and a conclusion. The first requirement: Introduce the writer and the concept of hidden factors. In the second requirement: The research dealt with a brief analysis of the novel (Death Passes by) and the hidden factors behind its characters, and in the third requirement: The study dealt with the hidden factors that stood behind the emergence of a novel of the size of (Death Passes by) from here, in terms of quantity and quality.

The research came out with some results and recommendations, such as the importance of dealing with modern literary works from the perspective of what is behind the lines, going beyond the novel's characters and their works to the paths of these characters' goals and the underlying reason for their emergence into life within the novel.

Keywords: hidden factors, death passes from here, Abdo Khal.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

يعد الإبداع أحد المرتكزات الأساسية ليس في الأعمال الأدبية فحسب، بل في حياة الإنسان أيضًا؛ إذ يخلق الإنسان لنفسه عالمًا خاصًا يخلع عليه الواقع، وهذا الأبداع هو من العوامل الخفية التي تكمن وراء النتاج الأدبي، وهو طريق الإنسان للتعبير عما يدور في خلد من آراء و أفكار لا يستطيع التعبير عنها على أرض الواقع، فيجد في العمل الأدبي ملاذًا لنشر أفكاره، ومبادئه.

من هنا كانت الرواية من أهم الفنون الأدبية النثرية التي تلبى هذا الغرض عند المبدع، فيستطيع الكاتب عبر صفحاتها وفي ثنايا شخصياتها أن يبعث رسالته للقراء والمتلقين، منتقلًا بهم من الواقع المعاش إلى عالم روايته التي يبت فيها همومه وأفكاره وكل ما يريد. وقد عمدت الدراسات النقدية الحديثة للأدب في مناهجها المتعددة إلى الغوص في أعماق العمل الروائي والتنقل بين شخصياته؛ لتدخل إلى عوالم جديدة؛ أي ما وراء النص الروائي لتكشف للقارئ عن أهدافٍ أخرى كانت السبب في كتابة النص الروائي، وعوامل دفعت الكاتب للإبداع في هذه النص.

من هنا جاء هذا البحث الموسوم بـ: "العوامل الخفية كما تتجلى في رواية الموت يمر من هنا لبعده خال"، ليتعرف إلى العوامل الخفية الكامنة عند عبده الخال التي كانت السبب في كتابة هذه الرواية.

مسوغات البحث وأهدافه وأسئلته:

1. كان أهم أسس اختيار رواية: (الموت يمر من هنا) ما تمثله من انطلاقة جديدة في الرواية العربية؛ فهي تختزل ماضي العرب وواقعهم لتدخل بالقارئ في عالم جديد يكشف عن مأساة معاصرة صيغت بلغة قوية على ألسنة شخصياتها.
2. ومن مسوغات اختيار هذه الرواية أيضًا ما وصفها به القصبي على صفحة الغلاف قائلاً: "إن الإنسان الذي يستطيع أن يعذب هذا العذاب كله، و أن يشقك هذا الشقاء كله عبر رواية.. مجرد رواية.. لا بد وأن يكون روائياً موهوباً...".
3. أن عبده خال قد كتب هذه الرواية في إحدى عشر سنة -كما يقول- مما جعلها أجمل رواياته على الإطلاق؛ إذ كتبها بنفس عالٍ جدًا و وجع فريد.
4. و يشتهر خال بالبنفس الملحمي في كتاباته الروائية منذ روايته (الموت يمر من هنا) التي صدرت في العام 1995، التي يلم فيها شتات التفاصيل المحلية في جنوب وغرب المملكة.
5. ومن أسباب اختيار هذه الرواية أن الروائي عبده خال -كاتبها- سبب انفجار الرواية في السعودية والدول المجاورة، كما أن الموت يمر من هنا عمل ملحمي كبير، يستحق القراءة والنقد والتحليل.

وقد هدف هذا البحث إلى:

1. الكشف عن ذات الكاتب التي وقفت خلف النص والانتقال من الواقع الذي يعيش فيه إلى عالمٍ آخر أكثر قربًا للنفس وأكثر إبداعًا.
2. تسليط الضوء على العوامل الخفية خلف كتابة هذا العمل الملحمي.
3. الوقوف على مواطن الجمال التي أخرجها خيال عبده خال في هذه الرواية، عبر شخصياتها.
4. التعرف على مصدر إبداع الكاتب والسبب الحقيقي خلف إنتاج هذا النص الروائي.
5. الانتفاع بالنظريات الأسلوبية الحديثة في إعادة قراءة النصوص الأدبية من خلال تطبيقها على الأعمال الأدبية.

وقد حاول البحث الإجابة عن عدة أسئلة منها:

ما هي أهم العوامل الخفية التي وقفت خلف هذا المتن الروائي؟ وما هي آليات اشتغاله؟ وإلى أي مدى استطاع عبده الخال أن يتجاوز الواقع لتحقيق عالم خاص من التصورات الخيالية بث فيه كل ما يريد من أفكار ومعتقدات ونقد اجتماعي وسياسي على أسنة شخصياته؟ وهل كان لعبد خال دوافع سياسية واجتماعية لإنتاج نص ملحمي بحجم الموت يمر من هنا كما ونوعاً، أم أنّها نتاج عوامل نفسية بحتة؟ وأخيراً ما سبب اختيار هذا العنوان وما العامل الخفي خلف اختيار عنوان الرواية.

منهجية الدراسة:

للوصول إلى النتائج المرجوة فقد اتبع البحث عدة مناهج منها: المنهج الوصفي والمنهج الاجتماعي، والرمزي لتحليل هذه الرواية ودراستها إذ تعرّف إلى مفهوم العوامل الخفية عند النقاد، وتحليل عناصر الرواية من زمانٍ ومكانٍ وشخصٍ وغلافٍ وغيرها، واعتمد بذلك على آليات: (السرّد في المنهج البنيوي وعلى أجزاء الوصف والتحليل).

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة مطالب، وخاتمة، على النحو الآتي:

المطلب الأول: تناول حياة الكاتب عبده الخال وعرّف بمفهوم العوامل الخفية، المطلب الثاني: فقد عرّف بالرواية وما دار حولها وحول عنوانها، وتناول العوامل الخفية خلف شخصيات الرواية، أما المطلب الثالث والأخير: فقد تناولت فيه الدراسة أهم العوامل الخفية خلف كتابة عبده خال للموت يمر من هنا، وفي الخاتمة عرض البحث لأهم النتائج التي توصل إليها.

المطلب الأول:**أولاً: إضاءة على حياة عبده خال:**

هو كاتب عربي معاصر من السعودية ولد في أحد قرى منطقة جازان، درس المرحلة الابتدائية في مدرسة (ابن رشد) في مدينة الرياض حيث قضى فيها فترة من طفولته، وبها درس المرحلة المتوسطة في مدرسة (ابن قدامة)، ثم عاد بعد أربعة أعوام إلى مدينة جدة وأكمل المرحلة المتوسطة في مدرسة (البحر الأحمر)، ثم أتم المرحلة الثانوية في مدرسة (قريش)، ثم حصل على بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة الملك عبد العزيز.

وهو متزوج وله ثلاثة أبناء وابنة واحدة (وشل، ومعد، وعذب، وجوى)، عمل عبده الخال بالصحافة والإعلام منذ عام 1982م، وهو من أكبر القصاصين والروائيين العرب، له عدة مجموعات قصصية وروايات، يشارك في تحرير مجلة النص الجديد التي تعنى بالأدب الحديث لكاتب المملكة العربية السعودية، كان له زاوية أسبوعية بالصفحة الأخيرة بجريدة عكاظ (حقول) ولأن يكتب مقال اجتماعي يومي بنفس الجريدة (أشواك) يثير به جدلاً واسعاً بين القراء كل يوم¹.

كتب في العديد من المجلات العربية والمحلية على سبيل المثال: مجلة العربي الكويتية، أخبار الأدب المصرية، جريدة الحياة، مجلة الحدث الكويتية، مجلة نزوى العمانية مجلة الحدائث البيروتية، مجلة كلمات البحرينية، مجلة ابداع المصرية والبحرين الثقافية، ويشغل حالياً مدير تحرير جريدة عكاظ السعودية، ويشارك في تحرير دورية الراوي الصادرة عن نادي جدة الأدبي والمعنية بالسرد في الجزيرة العربية، فاز بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) سنة 2010م عن روايته المعنونة: ب(ترمي بشرر) الصادرة عن منشورات دار الجمل.

أهم أعماله الأدبية عدة مجموعات قصصية منها:

1. حوار على بوابة الأرض: مجموعة قصصية صادرة عن نادي جازان الأدبي 1984م.

1 - للاستزادة حول حياة عبده خال، الموت يمر من هنا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م، ص3، ومقدمات جميع أعماله الأدبية.

2. لا أحد: مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة 1992م.
3. ليس هناك ما يبهج: مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية جيزان 1993م.
4. حكايات المداد: مجموعة قصص للأطفال صدرت عن نادي جدة الأدبي 1994م.
5. وميض لدهشة باهتة، مجموعة قصص قصيرة جدا، دار أثر.
6. من يغني في هذا الليل: مجموعة قصصية صدرت عن دار الراوي بالدمام 1999م.

أما أهم رواياته:

1. الموت يمر من هنا: رواية صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت 1995م، والتي نحن بصدد الحديث عنها، وهي أول أعماله الروائية.
2. مدن تأكل العشب: رواية صدرت عن دار الساقي بلندن 1998م.
3. رواية نباح، دار الجمل.
4. رواية الطين، دار الساقي.
5. رواية فسوق، دار الساقي.
6. رواية ترمي بشرر، دار الجمل.
7. رواية لوعة الغاوية، دار الساقي.
8. الأيام لاتخبئ أحدا: رواية صدرت عن دار الجمل بألمانيا 2002م.
9. قالت حامدة (أساطير حجازية)، دار الساقي.
10. قالت عجيبة (أساطير تهامية)، دار الساقي.

ثانيا: مفهوم العوامل الخفية ودراسة الأعمال الأدبية من خلالها:

تعد العوامل الخفية للنتاج الأدبي من أهم أسباب الإبداع الأدبي؛ فهي توجه النص وتخلق عليه عالما من الخيال هو صورة للواقع المؤلم الذي يعيشه المبدع، فالإبداع "يعتمد اللغة وسيلة لتحقيق هذه الماهية؛ فإذا كان الرسم إبداعا وسيلته الشكل واللون، والموسيقى إبداع وسيلته الصوت، فإن الأدب إبداع وسيلته اللغة، إلا أن اللغة باعتبارها وسيلة لهذا الفعل لا تكاد تكون عنصرا حاسما في تعريف الإبداع، فاللغة كل يشمل كلام من (اللفظ والمعنى، والصورة، والفكرة، والتشكيل... إلخ)، وانطلاقا من تعدد عناصر اللغة ككل فإن مفاهيم الإبداع الأدبي متغيرة بموجب ذلك بحسب العناصر المركز عليها"². فالأدب مرآة تعكس واقع الأديب وحياته وتطلعاته وكل ما يفكر به، وكل الظروف المحيطة بالكاتب هي عوامل خفية أخرجت النص الأدبي إلى حيز الوجود.

وتكمن خلف الإبداع الأدبي عوامل خفية تثبتق من مشاعر الكاتب تساعده على النهوض بنصه، فلا تكمن أهميتها في إجابة الإنتاج الأدبي فحسب، بل هي من العوامل التي تهيء سبيل الارتقاء بوحدة العمل الأدبي، فالإنسان يمتلك قدرة الخلق والابتكار التي تكشف النقاب عن كثير من الأسرار الكامنة خلف هذا النتاج الأدبي، والمستمدة من ماضي الكاتب وواقعه المعيش³.

وكثيرا ما تقاطعت مبادئ المناهج النقدية الحديثة من تاريخي إلى اجتماعي إلى وصفي، إلى نفسي؛ لأن تلك المناهج تتطرق في دراستها للأدب من المبدع والعوامل النفسية والاجتماعية وغيرها من العوامل المحيطة به، التي أخرجت هذا النص الأدبي.

2 - نور الدين حديد، مفهوم الإبداع الأدبي في النقد العربي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة صطيف، الجزائر، 2014م، ص8.

3 - انظر: صبحة بغورة، مرجعيات في حديث السياسة مع الفن والأدب والتاريخ، ط1، لندن، 2019م، ص 195.

يقول ابن قتيبة: "وللشعر دواعٍ تحث البطية وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب"⁴. فهو يعزو النتائج الشعري لعوامل نفسية واجتماعية محيطية بالمنتج. فإن في تحديد ابن قتيبة لحالات جيشان النفس بالشعر وتدفعه يكشف عن خبرة بأحوال النفس يصعب على من لم يجربها الوصول إليها.

أما القاضي الجرجاني فقد ذهب إلى أبعد من هذا في تحليله الملكة الشعرية وإرجاعه إليها إلى عواملها المختلفة من طبع ورؤية وذكاء، وأن اختلاف الشعر يرجع إلى اختلاف طبائع الشعراء أنفسهم، فيقول: "وقد كان القوم يختلفون في ذلك.. فيرق شعراً أحدهم، ويصلب شعراً الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره؛ وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق؛ فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودمائة الكلام بقدر دماثة الخلقة"⁵.

فقد رأى فرويد أن العمل الأدبي موقع أثري له دلالة واسعة، ولا بد من كشف غوامضه وأسراه، فالإنسان يبني واقعه في علاقة أساسية مع رغباته المكبوتة ومخاوفه، ويعبر عنها في صورة سلوك أو لغة أو خيال، ويرى أن اللاشعور أو العقل الباطن، مستودع للرغبات والدوافع المكبوتة التي تتفاعل في الأعماق بشكل متواصل ولكن لا تطفو إلى مستوى الشعور إلا إذا توفرت لها الظروف المحفزة لظهورها، فالأدب والفن عنده ما هما إلا تعبير عن اللاوعي الفردي.

فالعامل الفني والأدبي عند فرويد يتكون من محاولة إشباع رغبات أساسية، ولا تكون الرغبة رغبةً ما لم يحل بينها وبين الإشباع عائق ما: كالترسيم الديني والحظر الاجتماعي أو السياسي، ولهذا تكون الرغبة حبيسةً تستقر في اللاوعي من عقل الفنان أو الأديب، لكنها تجد لنفسها متنفساً من خلال صيغ محرفة وأقنعة من شأنها أن تخفي طبيعتها الحقيقية⁶. وخلاصة القول أن أي عمل أدبي تقف خلفه عوامل خفية تعود لنفس الأديب ومجتمعهم وتاريخهم والظروف المحيطة به.

المطلب الثاني

أولاً: حول الرواية وعنوانها:

كتب عبده خال هذه الرواية في إحدى عشر سنة -كما يقول- بنفس عالٍ جدًا ووجع فريد، يبدأ الراوي الحكاية ثم ينتقل بين شخصها لينترك لهم دفة الحديث عن حياتهم... عن أمورهم الصغيرة وأوجاعهم الكبيرة، كل شخصية في الرواية لها وهجها الخاص (درويش) والعجوز نوار وعبدالله وغيرهم.

فما أن تقع أعيننا على عنوان الرواية حتى تطالعنا كمية البؤس ونظرة التشاؤم عند الكاتب، فالموت يمر ويخيم في داخل الرواية يخطف أرواح الشخصيات واحدة تلو الأخرى، دون أن يمس الجبروت والظلم أو يدين منه، ولعل الكاتب نجح في استقطابنا لقراءة الرواية مترامية الأطراف مستخدماً عنصر التشويق في عنوانها.

(الموت يمر من هنا) هي رواية تحمل نظرة ذات طابع سوداوي عن موت يمر من قرية (السوداء)، كان طيف الموت كبيراً قريباً ماثلاً أمام العيان يطالعنا من العنوان ومن أول سطر من الرواية حيث يقول الكاتب قبل التعريف بقرية السوداء والتي كان لها من اسمها النصيب الأكبر: "أرض يابسة وقف عليها غراب.. بقراها فتقيحت رجالاً ونساء، وعشعش الغراب على رؤوسهم، وعندما تعب التقمهم واحداً واحداً، وطار.. حط على نبع ماء قد شاخ، وحين غنى هطلت دماؤهم من فمه وفار الماء"⁷.

4 - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1997، مقدمة الكتاب، ص33.

5- الجرجاني، الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دنت، ص17.

6 - انظر: عبدالله خضر حمد، مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 2017، ص 51.

7 - عبده الخال، الموت يمر من هنا، ص7.

لعلّ هذه الأسطر تلخص لنا ما سيدور في الرواية كلها؛ فالسوداي هو الغراب الذي يقطن في القلعة المشرفة على القرية والتي عيرَ عنها الكاتب في هذه الأسطر بأرضٍ يابسة، هذه الأرض عندما فتحها وبقرها خرج منها الرجال و النساء ولكنه نعتهم بالتقيح كناية عن مرض يعشش في داخلهم، وما كان منه إلا أن التهمهم وأحضر لهم الموت الذي استقر بهم ولم يمر من عندهم كما هو مائل في عنوان الرواية، وثم ذهب ليشرب من نبع الماء رمز الخير والعطاء رغم شيخوخته، وعند غناءه نزلت دمائهم بالماء، كناية عن ازدياد قوته وجبروته. ثم يأخذ عبده خال في وصف هذه القرية وينعتها بنعوتٍ سوداوية، بل أكثر سوادًا من اسمها ومن الموت نفسه؛ فهي قرية نساها الزمن في أرض غرباء، فتكت بها الأمراض، تفصلها عن العالم الخارجي أحراج كبيرة ومخيفة لا يتجاوزها إلا من باع عمره، يتناهب الغرباء خيراتها، ويعيش أهلها بذل ومهانة، وفقر ومرض، وجهل، وحاجة.

وتدور أحداث الرواية حول أهل قرية (السوداء) وما يعانون من ظلم وجور وجهل وتحكم (السوداي) فيهم وظلمه لهم، و(السوداوي) شخص يقطن قلعة تطلُّ على قرية (السوداء)، سيد القلعة الرهيبة التي لا يخرج منها من يدخلها إلا إلى المقبرة، تحيط به حاشية فاسدة جشعة لا تشبع، ويحرسه جيشٌ لا يرده أحد يرتكب أبشع الجرائم يمتاز أفرادها بالقسوة والقوة والجبروت.

ويقف في وجهه هذا الطغيان الجارف مجموعة من الرجال وهم: الزيلعي وعبده خواجه اللذين أقسما أن يقتلا السوداي، ودرويش المجنون الذي يتحدّى السوداي ورجاله كلما سنحت الفرصة، وعبد الله الشاقي الذي خطب في الجامع محرّضًا الناس على التمرد، وشبرين الذي ينتظر اللحظة المناسبة للانتقام، وتستمر أحداث الرواية حيث تروي كل شخصية عذابها الذي تناها خال فيه حتى جعل هذا العذاب والشقاء والطغيان هو الحياة التي اعتادها أهل القرية.

وبهذا الشقاء يقرر أهل القرية مصيرهم الذي لا مفر منه: "تتساء نحن بهذه الحياة... وأكثر تعاسة بقلوبنا التي نحملها معنا أينما اتجنا... أليس من الأفضل أن نعلق حجارة في صدورنا ونمضي؟... عندها سنكون أكثر قابليةً للموت، وأكثر استعدادًا للقسوة، وأكثر احتمالاً للحياة"⁸.

وتنتهي الرواية بمصير عائلة مونتان الذي دسّ له السوداي السم في (ميسم الكي) ليموت على مهل، هذا الشاب الذي ضحت والدته بكل شيء في سبيل خروجه من السجن حتى دعاها الأمر أن تقبل أن ينتهك السوداي شرفها مقابل أن يعفو عن ابنها، ويخرجه من السجن بعد أن يُست من انقاده، هذا السوداي الذي لم يتوانى عن اقتلاع عين زوجها ودهسها بقدمه أمام الجميع في الأيام الماضية، لم يرأف بحال هذه الأم التي تحرقها عقدة الذنب فتبذل ما تملك وما لا تملك أملاً في استعادة ابنها والرغبة في الوصول له، ومع كل أسف يموت مسموماً بعد خروجه من السجن، فما كان منها بعد كل هذا العذاب والخسارات المتلاحقة إلا أن تقرّ هرباً في الليل الحالك لتتجو بابنيها (جيلان وصالحة) من هذا الشعبان (السوداي) ويُسد خال الستار على روايته وقد انتصر الشر وأزداد قوة وجبروتاً وخسارة وموت كل من حاول الوقوف في وجهه.

ثانياً: العوامل الخفية خلف شخصيات الرواية:

الرواية مليئة بالحكم والتصورات عن الحياة، يستطيع القارئ أن يخرج منها بتصوره الخاص عن الحياة ودون سوداوية بعكس ما هو موجود في عنوانها وأول صفحاتها، وما تناقلته السنة شخصياتها، وتأتي الرواية في خمسمائة واثنى عشرة صفحة، بسرمد مشوق يزخر بالأحداث.

وهي ليست مجرد وعظاً اجتماعياً أو بياناً سياسياً يفقد الكثير من المتعة والحكمة و التميز السردي الذي نلمسه في الروايات المتميزة، بل تحمل قيماً فنيةً وأدبية تستحق التحليل وتستحق أن تقدم لنا أوجه الجمال والإبداع البارزة، ولعلّ هذا الأبداع يطالعنا في غلافها

8 - عبده خال الموت يمر من هنا، ص 8.

عندما ذيل القصبي لها بقوله: "إن الإنسان الذي يستطيع أن يعذبك هذا العذاب كله، أن يشقك هذا الشقاء كله عبر رواية.. مجرد رواية.. لا بد وأن يكون روائياً موهوباً..."⁹.

ولكن النهاية خالفت ما ألفناه بالروايات العربية فلم تنتهي بموت السوادي رمز التعذيب والشقاء والقهر لكل من حوله، فلم يندحر شر الطاغية بشكل واضح، حتى كأن الموت لدى عبده خال لا يمر من هنا بل يبقى ويستوطن هنا (في بيئة الرواية) كبقاء السوادي الذي تجبر حتى قال عن نفسه: كنت أقول: لا ترم حذاءك القديم كي تصفع به عدوك، وقد نفذ كل الأعداء، وظلت أحذيتي في ازدياد، وكنت أقول: حين تشعل حريقاً عليك أن تحمل دول ماء لإطفاء الحريق كي لا يقال إنك الجاني، وأحرقت بيوتاً وأجساداً أمام أعين الجميع، ولم يجرؤ أحد على التفوه معترضاً على ما أصنع.

وعلى الرغم من كبر حجم الرواية إلا أنها لا تبعث على الملل؛ ويعود هذه لتمييزها عن غيرها بتعدد الرواة، فنجد في كل فصل شخصية من شخص الرواية تنتقل لنا الأحداث، والجميل أن الروايات قد تتقاطع وقد تختلف، كل حسب وجهة نظره، والأجمل أن التكرار قليل، بل كل شخص يعطيك أحداث أخرى كثيرة، وبهذا نجد أن الخيال في الرواية خصب جداً جداً، فللكاتب خيال غير طبيعي، فلا يمكننا إلا أن نقف متعجبين "من أين يأتي بهذه القصص والشخصيات كلها؟".

و كيف استطاع خلق هذه الشخصيات؟؟ من أين أتى بدرويش المجنون؟ كيف أحكم شخصية الجدة نوار؟ وكيف يقوى على خلق شخصية السوادي؟؟

ويبدع خال في وصف القرية مكان الرواية والأحداث في مطلع روايته حتى نشعر معه بصورة هذه القرية التي لم يحدد مناخها ومكانها فكل ما نعرف عنها أنها "وكأي قرية بلوكها القحط والتعب، استقرت قرية السوادي في فم الزمن، يعضها، ويستعملها على نواجذها، ويعاود مضغها حتى أن المضغ لم يعد يذبيها، فلفظها الزمن لبرحة النسيان"¹⁰.

ومن العوامل الخفية التي تقف خلف شخصيات عبده خال هو ما عايشه في صباه من حياة؛ فقد ولد وعاش وترعرع في قرية مهمشة من قرى السعودية، وهذه القرى تحمل شخصاً مختلفة، أدخلها إلى روايته وهي شخصيات قلقة، لا تعرف عن مصيرها شيء ولا تمتلك حق تقريره، لا يرضى عنها المجتمع، وقد حاول الكاتب أن يخرج هذه الشخصيات من قلقها؛ لتعبر عما تريد من دون خوف أو قلق من هذه القيود التي يفرضها عليها واقعا الاجتماعي والسياسي وظروف حياتهم. والمتتبع لأحداث الرواية يجد أن كل شخصية فيها أجمل وأروع من التي سبقتها في العرض والحديث وتصوير المعاناة والظلم.

المطلب الثالث: العوامل الخفية الكامنة خلف كتابة الموت يمر منه هنا:

أولاً: العوامل الخفية النفسية:

تقطر الرواية بمرارات المآسي الإنسانية الآخذة بالتكرر والتردد زمناً بعد زمن في كل حذب وصوب من هذه الحياة، لأن الحياة ستبقى في نظر الكاتب سؤالاً كبيراً جداً، لا نجد جواباً له، وعلى الرغم من أن الرواية بحاجة إلى جرعة من الوجد والاقتراب من حزن المظلومين، لأنها تعج بأهات كثيرة يرويها الموت، و تعرضها شخصيات الرواية بتفنن حتى نشعر بأننا أحد أبطالها، وهي تهي كل الأشياء إلا الكابوس الذي نتمنى انتهاءه في (الموت يمر من هنا).

ويبحر عبده الخال بالفقار من الواقع الذي يعيش في صفحات الرواية بين شخصها في أوجاعهم بين الحقول والبيوت التي تقاوم الجفاف وتهاجر القصص من لسان شخصية لسان آخر، كل منهم يروي عذابه وجحيمه فلا نعلم حد لهذا العذاب والجحيم المتجنر

9 - عبده خال، الموت يمر من هنا، الغلاف

10 - عبده خال، الموت يمر من هنا، ص9.

في شخصيات الرواية، حتى الليل في الرواية مختلف عن ما نألفه فهو كستار قاتم يخبئ كل شيء، وتقرر القرية فيه ألا تستمع لاستغاثته أحد، والوادي يبتلع كل شيء حين يقرر السير، والجوع لا يرحم أحد حتى من دُفن في بطن الأرض، فمثلاً: أحد أبطال الرواية درويش بسمرتة وبحثه عن روح تحبه، وتفكيره المستر في كيفية تخلص القرية من ظلم السوادي فُتِل ولم يستطع فعل شيء، و هو من قال عنه عبده خال: "كان لكل منهم قلب يأويه، ولم يكن لديه إلا حزن يطارده أينما حل فيجبرك على تتبعه خطواته، والانصات لكل ما يقول رغم الجنون الذي ألقه به شخصيات الرواية التي أخذت تروي أحداث حياتها بين طيات الرواية كابن الشاقي و شبرين و موتان و درويش، وبعض أهالي القرية.

ومن الكوامن الخفية خلف هذه الرواية ما نجده في نفس كاتبها، الذي أخذ يبحث عن الإنسان داخل القارئ وحكاية الظلم الأبدية التي نسجت منذ بدء الخليقة، حين ينصب الإنسان من نفسه إليها على البشر لأنه قوي وهم الضعفاء، لأنه غني وهم الفقراء، لأنه كريم وهم الأذلاء ولأنه غارق في السواد، والأشع من حكاية الظلم هو خنوع البشر ورضاهم به، وتعايشهم معه حتى غدى جزءاً من حياتهم اليومية؛ يتنفسونه مع الهواء العفن، ويشربونه مع الماء النتن، ويتجرعونه بكل رضا وسعادة، متنازلين عن حقهم في عيشة كريمة هانئة، ولعل الكاتب قد أَلَمَّ في روايته شتات التفاصيل المحلية في جنوب وغرب المملكة في القرى المهمشة عندما كان ينتشر النظام الإقطاعي.

ومن العوامل النفسية الخفية عند عبده الخال التي تقف خلف الرواية أنها كانت محاولة لاسترجاع الماضي، فهو يعيش الحاضر والماضي في قطبين معينين لخلق رغبة الكتابة.

والموت في الرواية لا يساوي الفناء، بل بالمفهوم الفلسفي للموت هو جزء من الحياة؛ لأنه لحظة مرئية في شخصيات الرواية نعتقد معها أن الحياة قد انتهت، ولكنها لا تنتهي؛ بل هي نقطة انتقال إلى آخر، هذه النقطة الأخرى هي التي لا نعرف عنها شيئاً سوى محاولة تشويق للوصول لها، وهي نظرة فلسفية، وليس صحيحاً أن عبده خال يكتب الموت فقط، ففي الرواية نوع من النظرة الفلسفية للحياة، وقد ورد هذا مراراً على ألسنة الشخصيات المعذبة في مثل: "نحن أنانيون... نرغب أن نرى سقوط الظلم وأن نرى ثمرة أعمالنا ونحن أحياء... إنها أنانية محضة... لماذا لا نجعل الخير يعبر فوق أجسادنا... كل الخير أن تسقط أجسادنا لينهض العدل..."¹¹.

ومن العوامل النفسية الخفية للرواية الحب؛ لأنَّ الموت هو طريق الحب، فالحب فضاء واسع تتعدد فيه مستويات الرؤية، في أوقات يكون الموت خلاصاً يتحول إلى حب، لأنَّ ثمرة حب آخر قد يبدو متخفياً، وهذا التخفي لا يكاد يكون ظاهراً، فعندما نتحدث عن الحب والموت، فنحن نتحدث عن قطبين في الحياة وقطبين للخلاص من مأزق الحياة ليتحول إلى حب.

ثانياً: العوامل الخفية السياسة والاجتماعية:

لا يخفى على من يتصفح (الموت يمر من هنا) أنها مرآة لما يعيشه الفلاحون في الوطن العربي خاصة والعالم أجمع في زمنٍ انتشر به نظام الإقطاع، وكان الناس يعملون بالسخرة في هذا النظام، فتكون القرية برميتها ملك لشخصٍ واحدٍ مخول برسم حياة الفلاحين فيها وسلب خيراتها، وعزلهم عن العالم الخارجي، وهو الخصم والحكم والقاضي والظالم والمستبد والمتحكم في رقاب الفلاحين، تزداد قوته مع الزمن وكل من فكر في معارضته، يجد الفناء، حتى من طاع يجد الذل والمهانة يعيش مسلوب الكرامة والإرادة.

فتعتبر (الموت يمر من هنا) انعكاساً لواقع الشعوب العربية المهمشة -طبقة الفقراء ومسلوب الحق والإرادة، جاءت في قالب سردي شرس إذ يُجابه الشر بأنواعه الذي يحيط بالمهمشين والمقهورين، وأحداث الرواية وشخصها ليست اعتباطية بل هي مشروع سردي لخال يبدو منظماً ومرتباً فهو يمتلك تصورًا واضحاً لما يريد أن يصل إليه من خلال الانكفاء على السردية التي جاءت على ألسنة الشخصيات فيها.

المتتبع للغة السردية في الرواية يجد أن خال يوظف سرديته لتلاوة نشيد الإنسان المهمش السفلي، إذ يحاول الغوص في العمق ليكشف عمًا يجري في الدواخل والبواطن، فعلى امتداد تلك الرواية أورد خال الرواي المعذب إذ رسم صورة العذاب بكل شخصيات الرواية؛

ليكشف عن التشوهات الاجتماعية، والصراع الطبقي بين طبقة الأرستقراطيين وطبقة المعذبين، صراع من أجل البقاء، فهو يرصد مواقف الصراع بين المتنفذين والمهمشين، ومتابعة يوميات البسطاء والمسحوقين غامساً فيها فعل السرد إلى الحدود القصوى حتى يغرق أحياناً في التصوير والتسجيل والرصد؛ فالسرد في الرواية هو رصد و تسجيل و تصوير للواقع الاجتماعي أو التاريخي، بما يدفع لاستحضار جدلية الانعكاس أو المرآوية التي تحكم علاقة الأدب عموماً بمرجعه الخارجي، وهي علاقة قد أسرفت النظرية النقدية قديماً وحديثاً ببحثها ومجادلتها¹².

فخال يمتلك تصوراً واضحاً لما يريد أن يصل إليه من خلال ممارسته السردية في هذه الرواية، فالسرد لديه واقعة اجتماعية، تقارب الواقع و تصوغه من وجهة نظر كاتبه الذي يبني في نصه عالمه الخاص، ويرينا العالم من زاوية تختلف، ربما، عن الزاوية التي ننظر منها... وهو بهذا المعنى وسيلة تحريك وتغيير للواقع بما هو رؤية مغايرة ومختلفة لهذا الواقع، فتسمية الخلل، وتتبع الشرور، ورصد الوقائع ليس لمجرد التسجيل ونقل صورة الواقع الاجتماعي بصورة فوتوغرافية، بل هو تسجيل موقف الذات الكاتبة ورفضها لمثل تلك الظواهر والتشوهات التي عشت في عمق المكون الاجتماعي المحلي، ولا بد من إلقاء أحجار كثيرة تحرك المياه الراكدة.

من هنا جاءت الموت يمر من هنا رداً اجتماعياً إبداعياً يسعى لمجادلة القيم التي تتشدد وتتشبث بها تلك القوى، والمعروف عن عبده خال في كل روايته أنه من أشرس هؤلاء المناضلين الذين حملوا همّ الألسان المسحوق والمهمش والمسلوب الإرادة والحقوق، والذاكرة الجمعية ضدّ تزيفها وطمر تراثها وتاريخها القريب فضلاً عن البعيد.

ولعل القارئ للموت يمر من هنا يجد في كل شخصية من شخصياتها الطبقيّة والمجتمع الإقطاعي، بما يمتلئ به فضاؤه من تسخير للكادحين والبسطاء، وغبن لحقوقهم لحساب رجل إقطاعي متنفذ تمثله شخصية السوادي في الرواية كرمز لقوى الشر والتسلط والهيمنة، وصور متلاحقة وتفاصيل كثيرة يلتقطها الساردون في الرواية لحياة الكادحين والمغلوبين في هذه الرواية بأسلوب أقرب للرمز وإن لم تك تلك الصور في النهاية غريبة على متن عايش تلك العلاقات في المجتمعات الزراعية الجنوبية تحديداً، فالكاتب ينحدر من قرية جنوبية يعرف ناسها جيداً معنى الكدح وشظف العيش، والذي يزيد جبروت المتنفذين شظفاً وحشية.

يوصل خال نقد التشوهات والعاهاات الاجتماعية في روايته و إساءة استغلال السلطة إلى التعدي على أموال البسطاء وأملاكهم وحتى أقدارهم ومصائرهم، والقوانين التي تطبق بمكايل مختلفة بناء على الأسماء والألقاب، والأموال الفاسدة التي تشتري كل شيء حتى الأجساد والضامير والمصائر، وتمايز الطبقات الاجتماعية بين فقر مدقع وغنى فاحش مهول، وانحسار الطبقة المتوسطة التي لا وجود لها في هذه الرواية كما بدأت تتحسر في الواقع، وكما اعتاد خال في معاصرتة للحظته الزمنية ومعاشة واقعه، فقد أدخل في نسج الرواية أحداثاً واقعية عديدة.

ولنا أن نبحر في العوامل السياسية الخفية خلف تلك الرواية إلى أبعد من ذلك، لا سيّما أنّ كتابة الرواية في انتني عشرة سنة قد واكبت أزمة الخليج العربي، وما شهده الوطن العربي من زوال أنظمة حكم وتقسيمات حزبية وسياسية كانت نتيجة لتلك الحرب، فلنا أن نتصور أنّ الكاتب يرى أن الدولة تحولت إلى عبد، وأصبحت الأنظمة العربية خادمة لدى قوى أخرى أقوى منها، وإذا كان النظام الاقتصادي والسياسي هو التابع والعبد لأنظمة لأخرى، فإن هذا انعكس على الأفراد الذين تحولوا إلى أجزاء صغيرة من العبودية داخل النظام ليصبح مهمم الخلاص الفردي، فالسوادي هو القوى الأخرى الخارجية، وجيشه وحاشيته هم الأنظمة العربية الخادمة لهذه القوة، أما شخصيات الرواية وأهل القرية هم أفراد الشعب الذين أصبح مهمم الشخصي الخلاص من هذا الظلم والاستبداد.

12 - للتعرف إلى تلك النظرية انظر: شكري الماضي، مقاييس الأدب: مقالات في النقد الحديث والمعاصر، دار العالم، دبي، 1، 2011م، ص

فنحن نعلم ما أحاط بهذه الرواية من ظروف سياسية عربية سوداوية عند كتابتها كهدم العراق دون وجود من يقاوم هذا الهدم. علاوة عمّا يدور في فلسطين واليمن ولبنان في ذلك الوقت، هذا كله انعكس على الرواية، فنجد الشخصية الروائية تعود إلى داخلها مسترجعة حياتها البائسة.

الخاتمة:

وأخيراً لا بدّ لنا أن نخرج من هذه الدراسة السريعة ببعض النتائج منها:

- 1- أن رواية الموت يمر من هنا لم تكن إلا نتاج عوامل نفسية وسياسية واجتماعية عايشها الكاتب في حياته.
- 2- تمثل رواية الموت يمر من هنا بشخصياتها نظام الإقطاع الذي انتشر في الوطن العربي في العهد العثماني.
- 3- نجح عبده خال في إيصال أهدافه للقارئ.
- 4- رغم كل السواد في رواية الموت يمر من هنا واستقراره في داخلها إلا أنّ الموت لم يكن في حقيقته إلا طريقاً للحياة.
- 5- وأخيراً يوصي البحث بإعادة دراسة الروايات العربية دراسة متعمقة لما خلف السطور للبحث عن الكوامن الخفية الكائنة خلف كتابتها.

قائمة المراجع:

1. الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د:ت.
2. شكري الماضي، مقاييس الأدب: مقالات في النقد الحديث والمعاصر، دار العالم، دبي، ط1، 2011.
3. صبحة بغورة، مرجعيات في حديث السياسة مع الفن والأدب والتاريخ، ط1، لندن، 2019م.
4. عبده خال، الموت يمر من هنا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م.
5. عبدالله خضر حمد، مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 2017.
6. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1997م.
7. نور الدين حديد، مفهوم الإبداع الأدبي في النقد العربي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة صطيف، الجزائر، 2014م.